التجمع العالمي لفرق السيدة – فاطيما 2018

فرح التلاقي من جديد

محاضرة الكاردينال مانويل كليمنتيه، رئيس أساقفة ليشبونة، بمناسبة التجمع العالمي لفرق السيدة

أحيي بحرارة جميع المشاركين في هذا التجمع العالمي لفرق السيدة، وأحيي بشكل خاص جميع الذين عملوا الكثير لتحقيقه. أشكركم جزيل الشكر لكل ماعملتوه فهو يكتسي أهمية كبيرة بالنسبة إلى الكنيسة والعالم.

إنه هام بالنسبة إلى الكنيسة لأنها "عائلة العائلات" ويجب أن تحافظ على هذه الصفة بشكل متصاعد. وهذا ما شدد عليه البابا فرنسيس في الإرشاد الرسولي "فرح الحب" الذي تلى مجمع الأساقفة. وهو يذكّر فيه بأن السنوات الثلاثين الأولى من حياة يسوع المسيح قد جرت في الوسط البيتي لعائلة الناصرة التي أصبحت بذلك "العائلة المقدسة". إنها العائلة التي جاء فيها الله إلى العالم، من العذراء مريم وتحت حماية القديس يوسف. إنها العائلة التي حقق فيها يسوع مسيرته البشرية حيث نما بالقامة والحكمة والنعمة. إنها العائلة حيث عاش خبرة التيقظ والتضامن والتي انتشرت فيما بعد إلى الجميع داخل "عائلة الله" التي ننتمي إليها والتي ندعو الجميع إلى الانضمام إليها. من الوسط البيتي إلى الوسط الكنسي، تظل العائلة المعيار للولادة والنمو والعيش معاً. لم يشكل يسوع عائلته بالمعنى الطبيعي. لقد خلق عائلة فوق طبيعية تضمنا نحن أبناء الله وذلك بتصعيده العلاقات والمشاعر التي عاشتها عائلة الناصرة بصورة بشرية لتصبح أكثر سمواً.

ولم تكن مصادفة أن تصدر عنه أقوال مألوفة للتعبير عن مشاعر رعوية وكنسية. إنه يقدم ذاته بصورة ابن يحمل أبعاداً أسرية وأخوية تشكل الحواضن الحقيقية لما يجب ان نكونه ككنيسة وككنيسة في العالم.

لننتبه جيداً إلى هذه النقطة مثلما فعلنا في المجمعين الأسقفيين الأخيرين والتي استعادها البابا فرنسيس مرات عديدة.

العلاقة الديناميكية بين الوسط العائلي والوسط الكنسي هي المسار المسيحي الذي عاشه وافتتحه يسوع المسيح بنفسه. ولقد بينت أعمال الرسل ورسائل القديس بولس أن المسيحية قد وجدت في المحيط العائلي مكاناً مفضلاً لانتشارها الأولي.

في القرون الأولى، كان من الصعب على المؤمنين أن يجدوا أمكنة أخرى للاجتماع الكنسي والاحتفال بالذبيحة الإلهية والتعليم المسيحي. ومن هنا، كانت العائلات المسيحية ضرورية خلال التبشير الأول بالإنجيل وخلال فترات الاضطهاد، من أجل أن يتحقق الإنجيل كبشرى سارة وكممارسة عملية.

عنوان هذه المحاضرة هو "فرح التلاقي من جديد". أنا واثق، على غرار الأب الأقدس وآباء مجمع 2014- 2015، بأن إعادة إنعاش العائلات المسيحية وتأكيد مكانتها في الكنيسة أمور جوهرية للبشارة الجديدة، الضرورية للقاء المسيح الحي من جديد. والمسيح، "الأخ الأكبر" الحقيقي الذي، بخلاف الأخ الوارد في المثل والذي استاء من عودة الأخ المبذّر، يقف إلى جانب الآب، بل هو يأتي باحثاً عنا حتى على "هذه الأرض القصية" حيث نعيش. وقام بذلك مجازفاً بحياته فهي الطريقة الوحيدة لاستمالتنا وإحيائنا. إن فرح التلاقي من جديد عمل فصحي بالتأكيد.

حين شدد القديس يوحنا بولس الثاني على "التبشير الجديد بالإنجيل"، أراده أن يكون "جديداً في حماسته وجديداً في أساليبه وجديداً في تعابيره". لقد لاحظ أن الجو العام في السبعينيات يمثل ثلاثة مواقف متميزة : الشعوب التي لم تصلها بعد بشرى المسيح أو الأماكن التي لم تتشكل فيها "الكنائس المحلية" بما يعنيه ذلك كله، والشعوب التي وصلتها البشرى والتي لا تزال تتابع العمل الرعوي الموزع بين الإرشاد والأسرار وأعمال الرحمة، وأخيراً الشعوب حيث يذبل التقليد المسيحي إلى درجة اقتربت فيها من فقدان ذاكرة الإيمان الحية.

وكان البابا القديس يوجه نداءه في تجديد التبشير إلى هذه الفئة الأخيرة معتمداً في ذلك على مساهمة العائلات المسيحية.

وليس من قبيل الصدفة أن تنمو في عهده أشكال عديدة من العمل الرسولي في العائلة، لاسيما في "الانطلاقة الرسولية" لكوبلات وعائلات كاملة بهدف تحفيز أو "إنعاش" الحياة المسيحية في أماكن كثيرة من العالم. ياله من تعبير رائع عن الحماسة الإنجيلية للعائلة حيث لا ينضب الإبداع في الأساليب وفي التعابير: إبداع في الأساليب لأنه ظهرت أشكال جديدة من وسائل الاتصال، وفي التعابير لأن المضامين ذاتها قد اكتسبت لغة معاصرة.

ولقد ثبت أن المحيط العائلي يتميز بالخصوبة والإبداع مما أتاح حصول هذا التجديد. والجماعة المسيحية والمجتمع عامة يفيدان كثيراً من هذه المساهمة التبشيرية. (أرفق شهادتي الشخصية بشهادة زملائي الكهنة لأشكر الكوبلات والعائلات التي ساهمت قليلاً أو كثيراً في العمل الرسولي فجددوا بذلك هذه المشاركة الرسولية- العائلية التي ظهرت بقوة لدى القديس بولس مع أكيلا وبرسقلا وكثيرين غيرهم).

هناك نقطة تبدو لي جوهرية لكي يظل "فرح التلاقي من جديد" منتجاً في المجال الاجتماعي والكنسي : تعني عبارة "التلاقي من جديد" استرداد شيء فُقد منا ولكنه كان موجوداً واستمر ذاكرة ووعداً. والعائلة هي المكان الأكثر أماناً حيث تتفاعل الذاكرة وتستمر حية.

وليس مصادفة أن يستخدم يسوع وسطاً عائلياً في مَثَل حب الله الرحيم حيث الموضوع الحقيقي يتعلق بالله أكثر منه بإسراف الابن الأصغر. يحدثنا هذا المثل عن "أب" وابنين وبيت. إنه لا يتحدث عن "الأم" ولكن لا شك أنها كانت ستشارك، إن وجدت، في محبة هذا الأب بشكل كامل وعلى طريقتها. ولقد رأينا في مقاطع أخرى من الإنجيل أمهات يسعين إلى خير أولادهن بقوة، على غرار العذراء مريم التي بحثت عن فتاها يسوع إذ كانت لاتقل قلقاً عما كان عليه يوسف.

مع ذلك، علينا الإقرار أن هذه النقطة تصطدم اليوم بصعوبات نوعية. يعني التلاقي من جديد استعادة لقاء كان قد حصل بالفعل. لقد فقد الابن الضال في المثل كل شيء، الأموال والعلاقات والمكانة الاجتماعية، وانحدر إلى الحالة الدنيا التي يمكن أن يصل إليها يهودي شاب ميسور إذ أصبح بعيداً عن بيته، يحرس الخنازير من دون أن يتمكن حتى من أكل خرنوبها... لم يكن يملك شيئاً ولم يكن يساوي شيئاً. كان بهذه الحالة وكان يتألم لذلك، غير أنه احتفظ في الواقع بشيء ما. إنه شيء كان كبيراً وكان وفيراً وهو الذي خلصه في نهاية الأمر. إنه ذاكرة البيت العائلي حيث سيرحَّب به ويُعتنى به بكل تأكيد، أقله مثل أحقر العاملين فيه.

وهذه الذاكرة هي التي جعلته ينتصب من جديد ويعود، وهي التي أتاحت التلاقي من جديد. إنها بهجة التلاقي من جديد، لاسيما بهجة هذا الأب الذي ظل ينتظر بلا يأس. خرج من البيت ورآه قادماً من بعيد، وجنّبه اللجوء إلى كلمات الندم، وأعاد إليه بنوته وامتيازاته وأقام له حفلاً كبيراً لم يكن الابن الضال ليتصوره البتة، حفلاً سبّب دهشة كبيرة لدى الابن البكر.

لا لزوم لأن نذكر بأن الفرح العميم الذي فاض من المثل إنما يمثل غبطة الله الدائمة حين يجدنا، نحن الذين خُلقنا لنكون أبناءه وليبحث عنا بأي ثمن. وهذا الفرح هو فرح يسوع الذي يشارك في مشاعر الآب كلها بالروح القدس الذي يجمعهما إلى الأبد. ويسوع الذي جاء من الآب وسكن بيننا في العالم هو الذي يرافقنا ويقودنا نحو الآب في الحياة الجديدة التي يهبنا وفي الروح القدس الذي يوزع مواهبه.

وهذه الذاكرة هي أيضاً الذاكرة المسيحية التي نُقلت إلينا في عائلتنا حين حصلنا على نعمة الولادة والعيش في كنف عائلة مؤمنة، كما كان القديس بولس يذكّر تلميذه طيموتاوس : "واذكر ما بك من إيمان بلا رياء، كان يعمر قبلاً قلب جدتك لُئيس وأمك أونقة، وأنا موقن أنه يعمر قلبك أيضاً" (2 طيموتاوس 1، 5). وحين حصلنا على نعمة تنمية الإيمان في الجماعة المسيحية كما يلاحظ الرسول ذاته ذلك بين أهل تسالونيقي : "علينا أن نشكر الله دائماً في أمركم، أيها الإخوة. وهذا حق لأن إيمانكم ينمو نمواً شديداً ومحبة كل منكم جميعاً للآخرين تزداد بينكم". (2 تسالونيقي 1، 3). إنها الذاكرة الأولى التي نحوزها والتي نتناقلها ضمن العائلة البشرية محتفظين بالكلمات الأساسية التي وردت في سفر التكوين (تكوين 1/ 27- 28). إنها ذاكرة ضرورية من أجل بلوغ الأمان الأساسي الذي يحقق كياننا بل يشفينا.

عسى أن تظل ذاكرتنا في تقدم دائم حاملين في عمق أعماقنا ماهو أساسي وعسى أن تجعل هذا اللقاء يتحقق بملئه في يوم من الأيام.

اسمحوا لي أن أذكر في هذا الصدد قصيدة لشاعرة برتغالية كبيرة، وهي جديرة بأن تشكل صلاة من أجل اللقاء الودي أو التلاقي الكامل :

في يوم ما، سوف أهدم الجسور كلها
تلك التي تصل كياني الحي والكامل
بضوضاء العالم الوهمي
وسأتسلق بهدوء حتى الينابيع
سأذهب إلى الينابيع حيث يسكن
الكمال والبهاء الشفاف
التي وُعدت بها في كل حين
وعلى صفحة الحب الناقصة
سوف أنهل النور والفجر
سوف أنهل صوت هذا الوعد
الذي يجتازني أحياناً كرفّة طير
والذي أحقق به كياني الكامل (صوفيا دي ميلو برينر أندريسين - الينابيع)

هذا بديع لأنه صحيح كلياً. بيد أن أوضاع الحياة الحالية تجعل ذلك صعباً في حالات عديدة. لا أريد التمثل بحقب أخرى لم تكن يسيرة هي أيضاً، فالواقع أن شروط العيش والتدرب والعمل بالإضافة إلى السكن والانتماء المجتمعي تهتز بين عدم الثبات والسيولة بالنسبة لعدد كبير من الأشخاص، ولا يعود ذلك إلى أسباب مالية وحسب. كل ما تقدم لا يساعد على تشكل ذاكرة صلبة ضمن التلاقي من جديد. وهنا يكمن سبب حدوث الاضطرابات العديدة في الشخصية بالإضافة إلى القرارات المؤجلة المتعلقة بمشاريع العائلة، عدا عن العدد المقلق من أشكال الكبت والاكتئاب التي تصيب الأشخاص في سن مبكرة أو متقدمة.

لخمسين عام خلت، حين تمكن الجيل الجديد الذي ولد وترعرع بعد الحرب العالمية الثانية من أن يثبّت ذاته، اعتقد الكثيرون أن شيئاً جديداً سيظهر من تحت الأنقاض الثقافية والحضارية المتراكمة، شيئاً يتحرر من السجون القديمة والقوالب الحديثة. نلاحظ الآن، مع تجنب التعميم، أن كل شيء تقريباً قد اختصر إلى لا شيء تقريباً، أو أنه أحيل إلى "أنا" مطالبة دائماً بالاستهلاكية الجامحة حيث يُختزل كل شيء في مواد تُرمى بعد التمتع بها.

أصيبت حياة العائلة بشكل طبيعي في تكوينها وفي صلابتها. ونسبة حالات الطلاق الكبيرة إنما تمثل علّة أكثر منها سبباً لأنها تنتج في أغلب الأحيان عن اتحادات تمت على عجل أو لم يجر الإعداد لها البتة. ومن المؤكد أن لا أحد بإمكانه الاستعداد للزواج بمعزل عن شهادة الذين يعيشون المثال المسيحي. لن يتحقق التبشير الجديد إلا بواسطة عائلات مستقرة وديناميكية، عائلات لا يتخلى فيها أي شخص عن شخص آخر وحيث يتم تجنب الأزمات وتجاوزها باللجوء إلى التلاقي المتجدد باستمرار.

إنه تلاقي يكتشف فيه كل شخص ذاته من جديد بممارسة المحبة الزوجية والعائلية. ولقد ذكّر البابا فرنسيس بهذه الناحية في "فرح الحب" في فصل خاص عنوانه "الحب في الزواج" : "لأنّه لا يمكننا أن نشجّع مسيرةً من الأمانة، ومن العطاء المتبادل، إن لم نحفّز نموّ وتوطيد وتعميق الحبّ الزوجيّ والعائليّ. في الواقع، إنّ نعمة سرّ الزواج تهدف قبل كلّ شيء إلى "رفع الحبّ بين الزوجين إلى درجة الكمال" (رقم 89). ويستمر البابا في حديثه من خلال تعليق طويل ومعبر على نشيد المحبة الوارد في رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل قورنتس (13/ 4- 7) الذي يجد تطبيقه الحسي في الحياة العائلية. إنه الأساس الحقيقي لعيش مثال الزواج المسيحي وتناقله.

من المؤكد أن التقييد الاجتماعي-الثقافي الحالي لا يسهل تحقيق هذا المثال. غير أن الأمر كان مشابهاً في الوسط الذي قدمه فيه يسوع المسيح منذ ألفي عام عبر أقوال شديدة الوضوح والقوة كتلك التي نجدها باستمرار في الأناجيل (مرقص 10/ 1- 12 وما يوازيه).

ما يقترحه الاتحاد الزوجي المسيحي هو عمل مستمر في الدخول والعودة والتقدم في الحياة الإلهية بحيث نجد أنفسنا محاطين برحمة الآب، في أمانة للابن وباتحاد مع الروح القدس. والبابا فرنسيس، بالإضافة إلى التيقظ الذي يطلبه منا إزاء الوضع الواقعي لكل زوجين وكل عائلة، يشدد باستمرار : "أذكر بأنه لا يجب على الكنيسة بأي شكل أن تكف عن تقديم المثال الكامل للزواج، تدبير الله، في كل عظمته: "ينبغي تشجيع الشباب المعمدين على عدم التردد أمام مشاريع حبهم والتي ستغتني بقبول سر الزواج، متقوّيين بالعون الذي يحصلون عليه من نعمة المسيح، ومن إمكانية المشاركة الكاملة في حياة الكنيسة . إن الفتور، وأي من أشكال النسبية، أو المبالغة المفرطة عند تقديم الزواج، سيمثل عدم أمانة للإنجيل وأيضًا نقصًا في حب الكنيسة للشباب أنفسهم. إن فهم الحالات الاستثنائية لا يعني إخفاء ضوء المثالية الكاملة، ولا يعني التقليل من إعطاء أقل مما يقدمه يسوع الى الكائن البشري. اليوم، يُعد الجهد الرعوي لتعزيز الأزواج، ومن ثمَّ الوقاية من الانفعالات، أكثر أهمية من العمل الرعوي الموجه لحالات الفشل. (فرح الحب، رقم 307).

أيها المشاركون الأعزاء في هذا التجمع العالمي السعيد لفرق السيدة : الله التقى بنا من جديد في الوسط العائلي في بيليم والناصرة. ويجب أن يتم اللقاء الحالي بالله في محيط عائلي، في العائلات التي تعيش مثال الزواج المسيحي وتشهد له.

لذلك، من أجل الولادة والنمو والحياة، ومن أجل اكتساب المشاعر والتصرفات في العائلة ونشرها في "عائلة الله" (أفسس 2/ 19)، حققوا اليوم إنجيل المسيح بحماس جديد وبأساليب وتعابير تلائمكم.

هذا المظهر العائلي للكنيسة والرسالة أظهره سينودس الساقفة وعرضه بوضوح البابا فرنسيس. لنصغ إليه : "إن الكنيسة هي عائلة مكوّنة من عائلات، وتغتني باستمرار بحياة كل الكنائس البيتيّة." (فرح الحب- رقم 87) وأيضاً : "العائلات المسيحية، بفضل نعمة سر الزواج، هي اللاعبون الرئيسيون لرعوية العائلة، وخاصة "من خلال تقديم شهادة فَرِحة للأزواج وللعائلات، والتي هي كنائس بيتيّة" (فرح الحب- رقم 200)

يشير التجمع العالمي في هذه الأيام، وقد وضع تحت حماية سيدة فاطيما، إلى الحقيقة الكبرى المرتبطة بهذه الإرشادات البابوية. نحن نحيا مع أم الكنيسة في كل من عائلاتكم، بالنعمة الأسرارية التي تحملها، جو العائلة المقدسة التي عاش فيها الله معنا. وكما اليوم، سوف تلتقونه من جديد مرات كثيرة عبر شهادتكم.